المَدْرسةُ الشِّعْريّةُ الشّامِيّةُ في عَصْرِ سَيْفِ الدّولةِ الحَمْدانيِّ

أ.د. عيسى علي العاكوب
عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دمشق
أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب

- في آفاقِ المسألة.
- الحياةُ الأدبيّةُ في بَلاطِ سَيْفِ الدّولة.
- المدرسةُ الشِّعْريّةُ الشّاميّةُ: القَصْدُ العامُّ والخاصِّيّاتُ.
- أعلامُ المَدْرسةِ الشِّعْريّةِ الشّاميّةِ في ذلك العَصْر.
- المُحصَّلُ المُهِمُّ الأخيرُ.

- **في آفاقِ المسألة:**

تَظَلُّ الفَعاليّةُ الفنّيّةُ نَشاطًا انفعاليًّا إيجابيًّا، تُؤسِّسُ له جُمْلةُ عوامِلَ تتوزّعُ بينَ الذّاتِ والموضوعِ والحَياةِ العامّةِ، التي هي نفسُها مُنتَجُ عَوامِلَ كثيرة. ويَرَى النّاقِدُ والمُنظِّرُ الفرنسيُّ هيبوليت تِينْ (١٨٢٨-١٨٦٣م) أنّ ثمّةَ عَوامِلَ أساسيّةً تفعَلُ فِعْلَها في الفَعاليّةِ الفنّيّةِ الأدبيّةِ خاصّةً، هي: البيئةُ والجِنْسُ واللّحظةُ، أو القوّةُ الثّقافيّةُ الدّافعةُ التي أسْماها في الإنكليزيّة Moment[1]. وفيما أتى به تِينْ غيرُ قليلٍ مِن الحقيقة. ويستفيدُ مِنه المؤرّخُ الأدبيُّ والنّاقِدُ في فَحْصِ المنتَجاتِ الأدبيّةِ لِشَعْبٍ مِن الشّعوبِ، في عَصْرٍ مِن العصور.

والمُلاحَظُ تمامًا أنّ العَرَبَ، مِثلُ كثيرٍ مِن الأمم، أنتجوا أدبًا له مَكانُه بينَ

آدابِ الأُمَم، في أعصُرِ حياتِهم المتعاقبة. ولِأنّهم عنصرٌ بَشَريٌّ متحرّكٌ في الجُغرافيةِ، ومَتَوافِرٌ له بيئاتٌ مختلفةٌ، ومُجاورةٌ بِلادُه لِأعراقٍ بَشَريّةٍ في غايةِ التّباين، ولِعَوامِلَ أُخَرَ خاصّةٍ بهم، كان لِأدَبِهم أن يتميّزَ بِخاصِّياتٍ تُضاعِفُ انتماءَه إلى الصُّورةِ المثْلَى، أو المِثالِ الأفلاطونيّ، لِلْأدبِ جُمْلةً.

ولا يَنصرِفُ اهتمامُنا في هذه المحاضَرةِ إلى الحديثِ عن الأدبِ العربيّ في أنواعِه المختلفة وأقاليمِه الموزَّعة، بل سَنُركّزُ الكلامَ على الشّعْرِ العربيّ في إقليمٍ عربيٍّ واحِدٍ هو الشّامُ، في امتدادِه المُتعالَمِ له في العُهودِ العربيّةِ والإسلاميّة الأولى، وفي عَصْرٍ واحِدٍ هو عَصْرُ سيفِ الدّولةِ الحَمْدانيّ في حَلَبَ (٣٣٣-٣٥٦هـ).

ويقولُ ياقوت الحَمَويُّ (تـ ٦٢٦هـ) في شأنِ التّحديدِ المكانيّ لِلشّام: «وأمّا حَدُّها فَمِنَ الفُراتِ إلى العَريشِ المُتاخِمِ لِلدِّيار المِصْريّة. وأمّا عَرْضُها فمِن جَبَلَيْ طَيِّئ مِن نَحْوِ القِبْلَةِ، إلى بَحْرِ الرّومِ وما بِشَأمةِ ذلك مِن البلاد. وبِها مِن أمَّهاتِ المُدُن: مَنْبِجُ وحَلَبُ وحَماةُ وحِمْصُ ودِمشْقُ والبيتُ المُقدَّسُ والمَعرّةُ. وفي السّاحِلِ: أَنْطاكِيةُ وطَرابُلُسُ وعَكّا وصُورُ وعَسْقَلانُ، وغيرُ ذلك... ويُعَدُّ في الشّامِ أيضًا الثُّغورُ، وهي: المَصِيصةُ وطَرَسوسُ وأَذَنةُ وأَنْطالِيَةُ، وجَميعُ العَواصِمِ مِن مَرْعَشَ والحَدَثِ وبَغْراس والبَلْقاء، وغيرِ ذلك»[٢].

ومنذُ جاهليّةِ العَرَبِ كانتِ الشّامُ مَأمًّا لِشُعراءَ كبارٍ، كالنّابغةِ الذُّبيانيِّ وحَسّان بنِ ثابت، اللّذين كانا يفدانِ عليها مِن الحِجاز. ولا بُدّ مِن أن يُشيرَ ذلك إلى بيئةٍ عربيّةٍ تحتضِنُ الشِّعْرَ، وتُقيمُ لِأعلامِهِ وَزْنًا كبيرًا، وتُنتِجُ هي الشّعرَ؛ ذلك لِأنّهُ قد «أقامَتْ في الشّامِ قبْلَ الإسلامِ قبائلُ عربيّةٌ عِدّةٌ مِن عدنانَ وقحطانَ تُعرَفُ أنسابُهم، كالضَّجاعِمةِ السَّليجيِّينَ وتنوخَ وبَهْراءَ وكَلْبِ بنِ وَبْرةَ وعامِلةَ وبَلِيٍّ وخَوْلانَ والقَيْنِ بنِ جَسْرٍ. وهم غيرُ أولئك العربِ السّابقينَ مِمّن استقرّوا قبلَهم في الحواضِرِ، فنُسيَتْ أنسابُهم لِتقادُمِ إقامتِهم في الحواضر. وفي المَصادرِ

المختلفة عَدَدٌ مِن الأخبار والأشعارِ المتعلّقة بأبناءِ القبائلِ المتأخِّرةِ الإقامةِ في الشّام، مِمّن كانوا معَ السَّليجيِّينَ والغسّانيِّينَ»[٣].

وحينَ استظلّتِ الشّامُ بِظِلِّ شَجرةِ الإسلام، كان لَها تقديرٌ خاصٌّ، جاء نَصًّا في القرآنِ الكريم، والحديثِ الشّريف، وآثارِ الأصحابِ الكِرام.

وفي الحديثِ الشّريفِ أنّ النّبيّ مُحَمّدًا، عليه الصّلاةُ والسّلامُ، قال: «الشّامُ صَفْوةُ اللهِ مِن بِلادِه، وإليهِ يَجْتَبي صَفْوتَه مِن عِبادِه. يا أَهْلَ اليَمَنِ، عَلَيكُمْ بِالشّامِ فإنّ صَفْوةَ اللهِ مِن الأرضِ الشّامُ. ألا مَن أبَى فإنّ اللهَ تعالى قد تكفّلَ لي بالشّام»[٤].

ويبدو أنّه نَشَأ منذُ وقتٍ مُبكِّرٍ في تاريخِ الثّقافة العربيّة رأيٌ عامّ public opinion يَذهبُ إلى استحسانِ الشّام، وتَفضيلها على كثيرٍ مِن الأصقاع. فقد رُوي عن عبدِالله بن عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما أنّه قال: «قُسِمَ الخَيْرُ عَشَرةَ أعشارٍ، فَجُعِلَ تِسْعةُ أعشارٍ في الشّام، وعُشْرٌ في سائر الأرض. وقُسِمَ الشّرُّ عَشَرةَ أعشارٍ، فجُعِلَ عُشْرٌ بِالشّام، وتِسْعةُ أعشارٍ في سائرِ الأرض»[٥].

والرِّواياتُ في تقديرِ إسلامِيّي العهدِ الأوّلِ الشّامَ أرضًا وسُكّانًا مُستفيضةٌ، ويمكنُ التّعويلُ علَيها في الظّفَرِ بِتصوُّرٍ عامٍّ في شأنِ هذه البلادِ المباركة، يُعْلي مِن شأنِها، ويُصوِّرُ نِسْبيًّا مكانتَها في القلوب.

ولا ينبغي أن يُغفَلَ أمْرُ أنّ الشّامَ كانَتْ في الإسلامِ مُهاجَرَ عَرَبِ الجزيرةِ الأوّلَ والأكبرَ والأقربَ، وأنّها غَدَتْ عاصمةَ الإسلامِ بَعْدَ سَنةِ أربعينَ هجريّة. وإذا كانتِ الإماراتُ والدُّوَلُ في تاريخِ العرب بيئاتٍ راعيةً لِلْأدبِ شِعْرًا ونَثْرًا، كان صحيحًا تمامًا أنّ الشّامَ كانَتْ مَغْرِسَ الفحولةِ الشّعريّةِ عندَ العرب. ودَليلُ ذلك، الذي لا يُدحَضُ، أنّ ابنَ سَلّامٍ الجُمحيَّ (تـ ٢٣١هـ)، الذي صَنّفَ أوّلَ كتابٍ جامعٍ في التَّقْويمِ الجَماليّ الفَنّي لِلشّعْرِ العربيّ، وجَعَلَ شُعراءَ الجاهليّةِ عَشْرَ طَبَقاتٍ، وشُعراءَ الإسلامِ عَشْرَ طَبَقاتٍ، جَعَلَ شُعراءَ الطّبقةِ الإسلاميّةِ الأولى

أربعةَ شُعراءَ كبارٍ، هم جميعًا مِن أهلِ الشّام استيطانًا: الأخطَلُ غِياثُ بن غوثٍ (تـ ٩٠هـ)، وجريرُ بن عَطيّة (تـ ١١٠هـ)، والفرزدقُ هَمّامُ بن غالب (تـ ١١٠هـ)، والرّاعي النُّمَيْريّ (تـ ٩٠هـ).

وثَمّةَ ما هو لافتٌ لِلنّظَر في التّعامُلِ معَ شُعراءِ الشّامِ في القُرونِ الثّلاثةِ الأولى لِلْإسلام، وهو أنّهم ظَلّوا يُنسَبونَ إلى قَبائلهم؛ فالأخطَلُ تَغْلَبيٌّ، وجَريرٌ والفرزدقُ تميميّانِ، والرّاعي نُمَيْريٌّ. وحَتّى في القَرْنِ الثّالثِ استمرَّ هذا التّقليدُ، فأبو تمّامٍ والبُحتريُّ طائيّانِ. وما هذا بِغَريبٍ؛ فإنّ الطّابَعَ العامَّ لِلدّولةِ الأمويّة (٤٠-١٣٢هـ) أنّها دَولةٌ عَربيّةُ اليدِ والقَلْبِ واللّسان، حتّى إنّ الجاحظَ يقولُ: «دَوْلَةُ بَني العَبّاسِ أعجميّةٌ خُراسانيّةٌ، ودَولةُ بَني مَرْوانَ عَرَبيّةٌ أَعْرابيّةٌ»[٦]. ونحنُ نُشيرُ إلى هذا ابتغاءَ التّأسيسِ لِفِكْرةِ المتانةِ اللّغويّةِ والقُوّةِ الإبداعيّةِ عندَ شُعراءِ الشّام في الأعصُرِ اللّاحقة. ولَعلّه يكونُ ممكنًا القَولُ إنّ البيئةَ الشّاميّةَ تمتلكُ فيما يَتّصِلُ بالإنتاجِ الفَنّي على الجُمْلةِ عُنصُرَيْنِ مُهِمَّيْنِ: الحضارة والبداوة. وكِلا العُنْصُرَيْنِ يفعَلُ فِعْلَه في الإنتاج الفَنّي، بل يعمَلُ تَواؤمُ الضّدَّيْنِ على ميلادِ إنتاجٍ فَنّي وأدبيٍّ متميّز. ونَحسَبُ أنّ وَعْيَ هذا الأمرِ حَدَثَ مُبكّرًا في كُلِّ مدينةٍ أحاطَتْ بها الباديةُ. ولَعلَّ مِن ذلك مَثَلًا ما حدّثَ به ابنُ هِشامٍ في سِيرته حَيْثُ يذكُرُ «أنّ الطُّفَيلَ الدَّوْسيَّ قَدَمَ مَكّةَ ورسولُ الله بها، فحَذّرَه رِجالٌ مِن قُريشٍ مِن سَماعِ النّبيِّ حتّى لا يتأثّرَ بِقَولِه. قال الطُّفَيْلُ: فما زالوا بي حتّى أجمَعْتُ ألّا أسْمَعَ مِنه شيئًا. ثُمّ قُلْتُ في نفسي: وا ثكْلَ أُمّي! واللهِ إنّي رَجُلٌ لِبَيْتٍ شاعِرٍ، ما يخفَى عَلَيَّ الحَسَنُ مِن القَبيح، فَما يَمنَعُني مِن أن أسْمَعَ مِن هذا الرّجُلِ ما يقولُ؟- فإن كان الذي يأتي به حَسَنًا قَبِلْتُه، وإن كان قبيحًا تركتهُ»[٧].

وفي مَرْويّاتٍ كهذه ما يَدلُّ على إمكانيّةِ تفاعُلٍ حَضَريّ بَدَويٍّ في مَجالِ الفِكْر والفنِّ، ومُسابقةٍ إلى الإتقانِ اللّغويِّ، والتّجديدِ الفِكْريِّ والفَنّي. وقد يُحدِثُ

التّواؤمُ الحَضَريُّ البَدَويُّ ضَرْبًا مِن النّشاط باتّجاهِ تعزيزِ السِّماتِ الخاصّة لِلْحضارةِ والبداوة مَعًا، ولَعلّنا نظفَرُ بِما يَنصُرُ هذا في مِثْلِ قَوْلِ القطاميّ عُمَيْرِ بن شُيَيم (تـ ١٣٠هـ):

فَمَـــنْ تَكُـــنِ الحضـــارةُ أعجَبَتْـــهُ فـــأيَّ رِجـــالِ باديـــةٍ تَرانـــا

ومَـــنْ رَبَـــطَ الجِحـــاشَ فـــإنّ فِينـــا قَنًـــا سُـــلُبًا وأفراسًـــا حِســـانا[٨]

وفي مُتناوَلِ المتأمِّلِ أن يقولَ بِشَيءٍ مِن الجُرْأة التّأمّليّةِ إنّ الشّامَ بَعْدَ الإسلامِ خاصّةً غَدَتْ «حِجازَ العَرَب»؛ فالأُمويّونَ – حُكّامُ الدّولةِ العربيّة الجديدة – حِجازيّونَ قُرَشيّونَ، وهؤلاءِ لم يأتوا وَحْدَهم إلى الشّامِ بل سَبقَهم وصَحِبهم حِجازيّونَ قُرَشيّونَ وغيرُ قُرَشيّين وعَرَبٌ يمانيون وعَدْنانيونَ كثيرونَ، ولا يمكنُ هذا إلّا أن يُفيدَ اللّغةَ العربيّةَ وفَصاحتَها وإبداعَها الأدبيّ شِعْرًا ونَثرًا. هذا إضافةً إلى أمرٍ آخَرَ مُهِمٍّ هو أنّ المُدَنَ الشّاميّةَ لا تَجِدُ مِثْلَها في إقليمٍ عربيٍّ آخَرَ، عَدَدًا وامتدادًا حَضاريًّا وتَنوّعًا بَشَريًا. ثُمّ إنّ الخِصْبَ في بلاد الشّامِ وكثرةَ الأنهارِ ومُجاورةَ البَحْرِ، عَوامِلُ مِن شأنِها معَ ما أُشيرَ إليه قَبْلُ مِن عَوامِلَ أن تَجْعَلَ الشّامَ في قُرونِ الإسلامِ الأُولى دِيارًا يَؤمُّها وينزِلُ فيها أَهْلُ الفصاحة والفحولةِ الشّعريّة. هي الشّامُ إِذَن أرضُ «النَّفْع»، كما سَمّاها هِرَقْلُ حِينَ هُزِمَ الرّومُ، وجاءه الخَبَرُ، وبَلَغَه أنّ المسلمينَ قد بلغوا قِنَّسْرينَ، فَخَرَج منهزمًا يُريدُ القسطنطينيّةَ، فقال – وقد صَعِدَ على نَشْزٍ وأشرفَ على أرضِ سُورِيةَ: «سَلامٌ عليكِ يا سُورِيةُ سَلامَ مُودِّعٍ لا يرجو أن يَرْجِعَ إليكِ أبدًا!. ثمّ قال: ويْحَكِ أرضًا، ما أنفعَكِ أرضًا، ما أنفعَكِ لِعَدُوِّكِ، لِكَثْرةِ ما فيكِ مِن العُشْبِ والخِصْب»[٩].

وعلى هذا النّحو، يمكن القَوْلُ إنّ طُوفانَ العَرَب في فَجْرِ الإسلام وما بَعْدُ انداحَ في الشّامِ إلى حواضِرَ كثيرةٍ عريقةٍ، وأريافٍ خَصيبةٍ تدفَعُ شَظَفَ العَيْشِ وتُيسِّرُ الإقامةَ والاستقرارَ، حتّى قال حَسّانُ بنُ ثابتٍ القادمُ مِن المدينةِ إلى الشّامِ

يُصوِّرُ بلادًا قريبةً مِن دمشقَ:

عَفَــتْ ذاتُ الأصــابعِ فــالجِواءُ　　إلــى عَــذْراءَ مَنْزِلُهــا خَــلاءُ

وكانَــتْ لا يــزالُ بهــا أنــيسٌ　　خِــلالَ مُروجِهــا نَعَــمٌ وشَــاءُ

وحتّى في القرنَيْنِ الثّاني والثّالثِ الهِجْرِيَّيْنِ واصَلَتِ الشّامُ الرّيادةَ في مَتانةِ اللّغةِ وأَسْرِ النّسِيجِ الشِّعْريّ، والإفادةِ مِن عناصِرِ الارتقاءِ الفَنِّي في إنتاجِ شِعْرٍ مُثيرٍ لِلْإعجاب، باعِثٍ على إثارةِ الحِسِّ الجَماليّ. حتّى إنّنا نَجِدُ شاعِرًا شاميًّا حَلَبيًّا كبيرًا يُبدِع شِعْرًا بتَقْنياتٍ لافتةٍ لِلنّظَر، أفاد فيها مِن تَقنياتٍ فَنّيّةٍ ذاتِ مَصْدَرٍ غيرِ عَرَبيّ. فالشّاعِرُ الشّاميُّ مِن قِنَّسْرينَ، كُلثومُ بنُ عَمْرٍو العَتّابيُّ (تـ ٢٠٨هـ) كان «مُلِمًّا بِالفارسيّةِ إلى الدّرجةِ التي تَسْمَحُ له بِمُراجَعةِ النّصوصِ والمصنّفاتِ الفارسيّةِ في لُغتِها الأصليّة. ويُؤخَذُ مِن روايةِ طيفورٍ أنّ إعجابَ العَتّابيِّ بِمَعاني الفُرْسِ وتعلّقَه بها، جَعَلَه يَشُدُّ الرِّحالَ إلى مَرْوَ ثَلاثَ مَرّاتٍ؛ لِيُدوِّنَ كُتبَ العَجَم. وحِينَ سُئلَ عن ذلك قال: «وهَلِ المعاني إلّا في كُتُبِ العَجَم. والبلاغةُ: اللّغةُ لَنا، والمَعاني لَهم»[١٠].

وفي القرنِ الثّالثِ الهجريّ، كان شاعِرانِ شاميّانِ كبيرانِ قد حَمَلا لِواءَ الفصاحةِ اللّغويّةِ والمتانة الشّعريّة، وأُريدُ هنا أبا تَمّامٍ الحَوْرانيَّ الشّاميَّ، والبحتريَّ المنبجيَّ الحَلَبيَّ. ولَسْتُ أفهَمُ المنزلةَ التي حَظِيَ بها هذانِ الشّاعرانِ في بَغْدادِ العلومِ العربيّةِ والشِّعْرِ العربيِّ والإمارةِ البَيانيّةِ إلّا اعترافًا بِفَضْلِ الشّام: فَصاحةً ولَسَنًا وقُوّةً إبداعيّةً. وكانا مُقدَّمَيْنِ عندَ العَرَبِ في الشّرقِ والغَرْب.

– الحياةُ الأدبيّة في بَلاطِ سَيْفِ الدّولة:

لَيْسَ مِن شأنِنا في هذه المُحاضَرةِ أن نُؤرِّخَ لِلْحياةِ الأدبيّةِ في الشّام في عَصْرِ سيفِ الدّولة، أبي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ عَبْدِالله بنِ حَمْدانَ التَّغْلَبيِّ الرَّبَعيّ، الذي

مَلَكَ واسِطًا وما جاورَها، ثمّ اتّجهَ إلى الشّامِ فامتلكَها، وعاد إلى حَلَبَ فملَكها وجَعَلَها قاعدةَ مُلْكه سنة ٣٣٣هـ. بل نرمي فقط إلى تقديم إلماعةٍ سريعةٍ إلى البيئة التي هيّأها سيفُ الدّولةِ للشِّعْر والشّعراء.

وإذا كانتِ الحياةُ الأدبيّةُ في أيِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ تتأثّرُ بقوّةٍ بِحَياةِ الأدباءِ الخاصّةِ والعامّةِ في هذا العَصْرِ والمِصْر، فإنّ مِمّا يُوضِحُ شيئًا مِمّا نحنُ إزاءَه أن أنقلَ وَصْفًا سَريعًا لِحالِ عاصِمةِ سيفِ الدّولة، حَلَبَ، وحالِ الأَلْقِ والإشراقِ والرّعايةِ التي لَقِيَها الفَنّانونَ والمُبدعونَ في ظِلّ هذا الحاكمِ العربيّ، الذي حاز رياستَي السَّيْفِ والقَلَم، وتبنّى فلسفةً عجيبةً تجمَعُ بينَ بِناءِ الأوطانِ ورعايةِ الإنسان، وأنشأ جيشًا نِصْفُه مِن شُعراءِ البوادي، ونِصْفُه الآخَرُ مِن أُمَراءِ الحواضر. وفي هذا المَعْنَى ينقلُ المرحومُ الأستاذ سامي الكيّالي عن شخصٍ قد يكون ألمانيًّا، اسْمُه غوستاف شليمبرجر، قولَه في شأن الحياةِ الفَنِّيّة والأدبيّةِ في حَلَبَ في بلاطِ سيفِ الدّولة:

«شَغَلَ سَيْفُ الدّولةِ أذهانَ المؤرّخينَ والكُتّابِ والشُّعَراءِ في القرنِ العاشِرِ [الميلاديّ]، فما إن تقرأ لِشاعِرٍ مِن شُعَراءِ العرب، أو اليونان، حتّى يستهويَكَ الوَصْفُ والحديثُ عن هذا العَدُوِّ الجَذّاب، الذي حاربَ الإمبراطوريّةَ البيزنطيّةَ بِفُرْسانٍ كان نِصْفُهم مِن شعراءِ البوادي، وكان نصفُهم الآخَرُ مِن أمراءِ الحواضر... وقد أقسمَ مؤرِّخٌ بيزنطيٌّ زار حَلَبَ في عَصْرِ سَيْفِ الدّولة أنّ قُصورَ الخُلَفاءِ في بغداد، وقُصورَ مُلوكِ الرّومِ في القسطنطينيّة، كانَتْ أقلَّ بَهاءً مِن قُصورِ سَيْفِ الدّولَة.. وإنّ الفنونَ على تَبايُنِ أنواعِها كانَتْ مُضطهَدةً في عاصِمةِ المسيحيّة، ولكنّها كانَتْ تَنعَمُ بِتسامُحٍ كبير في عاصمةِ الدّولةِ الحَمْدانيّة. وقد كان المُصوِّرونَ والمَثّالونَ مِن الرّومِ يَخرجونَ مِن ديارِهم على كُرْهٍ مِنهم؛ لِأنّ قيصَرَ قد أرادَهم على هذا التّشريد. فكانَتْ حَلَبُ تستقبِلُ جميعَ هؤلاء، وكان سَيْفُ الدّولة يُكرِمُهم، ثُمّ يستفيدُ مِنهم، ويمتحنُ عبقريّاتِهم، ثُمّ

يَستغِلّها استغلالًا حَسَنًا، ويَقْبِسُ مِن تَحاسينها وتَزاويقِها ما يزيدُ في تحاسِينِ حَضارة بلاده»[١١].

كان بلاطُ سيفِ الدّولةِ في حَلَبَ، ومدينةُ حَلَب على الجُمْلة، موئلًا يَفِدُ عليه أصحابُ الفُنونِ المتفوّقونَ مِن أصقاعِ عالَمِ ذلك الزّمان، لِيجدوا ثَمّةَ الأمانَ والتّشجيعَ والعيشَ الكريم. وفي ظلالٍ كهذه تتفجّرُ يَنابيعُ الإبداعِ في الشّعْرِ والكِتابةِ الفنّيّةِ والخَطابةِ وعلومِ اللّغةِ والفلسفةِ والموسيقا والرَّسْمِ والتّصوير. فقد كان كلُّ ما في عاصِمةِ سيفِ الدّولة في عَصْرِه يُثيرُ الهِمَم، ويَدفَعُ إلى التّخليقِ، ويُحرِّكُ النّفوسَ ويَهُزّ الطِّباع. ونَخالُ أنّ الأستاذَ سامي الكَيّالي لم يجانبِ الحقيقةَ حِينَ قال:

«إنّ سَيْفَ الدّولةِ يختلفُ عن غيره مِن أمراءِ الإسلام، بل يمتازُ عنهم بِمفاخِرَ كثيرة: بِفُروسيّته، بِتذوّقه الرّفيعِ لِلْأدب، بِروحِه الكبيرةِ التي كانت تَحْلمُ بِالسّيطرةِ وتأسيسِ مملكةٍ عربيّةٍ مترامِيةِ الأطراف، بِإيقادِه نيرانَ الفَتْحِ في صُدور فِتْيانِ العَرَب، بِغَزَواتِهِ وحُروبِهِ التي صَدَّتْ عادياتِ الرّومِ عن بلادِ الشّام وأطرافِ العِراقِ غيرَ مرّةٍ، وبِمُغامراتِه وحُبِّه، وبِكرَمِه وعطاياه التي كان ينفَحُ بها جيوبَ الشّعراء، فيَهُزُّ قَرائحهَم هَزًّا مُثمِرًا، ثُمّ بِهذه المجالِسِ الأدبيّةِ التي كان يرأسُها..»[١٢].

ولا تَزيُّدَ إذا أنا قُلْتُ إنّ أفذاذَ الرّجالِ يصنعونَ تَواريخَ فَذّةً. وقد هَيّأ الخالِقُ العظيمُ لِسَيفِ الدّولةِ أن يَصْنَعَ لِلْعَرَبِ في عَصْرِه تاريخًا فَذًّا، وأن يُهيِّئ لِتاريخٍ أدبيٍّ خاصٍّ لِجُمْلةِ القَرْنِ الرّابعِ الهِجْريّ (العاشِرِ الميلاديّ). ذلك أنّ في طَليعةِ العوامِلِ التي دَفَعَتْ الثّعالبيَّ إلى إعدادِ رائعتِه «يتيمة الدّهر في محاسِنِ أهل العَصْر» ما أدركَه مِن قيمةِ الإنتاجِ الأدبيّ في بَلاط سيفِ الدّولة، هذا الإنتاجُ الذي جَعَلَ الثّعالبيُّ مجالَ بَحْثِه والتّأريخِ له القِسْمَ الأوّلَ مِن كِتابه، الذي خَلَعَ

عليه هذا العنوان: «القِسْمُ الأوّل في محاسِنِ أشعارِ آلِ حَمْدانَ، وشُعرائِهم، وغَيْرِهم مِن أَهْلِ الشّام، وما يجاورُها مِن مِصْرَ والموصِل..»[١٣].

– المدرسةُ الشِّعْريّةُ الشّاميّة: القَصْدُ العامُّ والخاصِّيّاتُ:

❋ القَصْدُ العامّ:

في اللّغة: المدرسةُ اسْمُ مكانِ الدَّرْس. وأَصْلُ اللّفظِ «مَدْرَس» على زِنةِ «مَفْعَل»، مِن دَرَس، بِمَعْنَى: أدامَ القِراءة. وزِيدَتْ عليه التّاءُ علامةً على الاسْميّة، فصار: مَدْرسة.

وفي الاصطلاح العامّ صارت الكلمةُ تعني أحيانًا: المدرسةَ الفكْريّةَ، أو المذهَبَ العَقْليّ المُسمّى في الإنكليزيّة school. وهذه قد تكونُ فِكْريّةً أو فنّيّةً، أو أدبيّةً. ويعني ذلك – على الجُمْلة – مجموعةً مِن المبدعينَ في فنٍّ مِن الفنونِ ينتظمُهم قَصْدٌ فِكْريٌّ واحد.

ونَعْني بِـ «المدرسةِ الشّعْريّةِ الشّاميّة في عَصْر سيف الدّولة» هنا: مجموعةَ الشّعراءِ الذين عاشوا في بلاد الشّام مِن أَهْلِ هذه البلاد، ومِن الذين جاؤوا إلَيْها مِن العراقِ وفارسَ وتأثّروا بطريقةِ شُعرائها في إبداع الشّعر، وقدّموا فيها شيئًا مِن أشعارهم، وراقَهم السُّكّانُ والبَلَدُ والفَنُّ في ذلك العصر. وأطْلَقْنا على هؤلاء «المدرسةَ الشّعريّةَ الشّاميّةَ»؛ لِإيماننا بوجودِ خَصائصَ فِكْريّةٍ وفَنّيّةٍ جامِعةٍ نِسْبيًّا بينَ هؤلاء.

ولِأنّ أبا منصورٍ عبدَالمَلِكِ بنَ محمّدِ بنِ إسماعيلَ الثّعالبيَّ النَّيسابوريَّ (تـ ٤٢٩هـ) عالِمٌ محقِّقٌ مُدقِّقٌ خَبيرٌ بالعربيّةِ وعلومِها وأدبِها، اجتمعتْ كلمةُ كثيرينَ قديمًا وحديثًا على تحقّقه بِهذه الصّفات، رأيتُ أن أعوِّلَ على كتابِه «يتيمة الدّهر» في استنباطِ خاصيّاتِ هذه المدرسة الشّعْريّة.

❋ خاصّياتٌ ظاهرةٌ لِهذه المدرسة:

قدّمَ الثّعالبيُّ مجموعةً مِن الخاصِّيّاتِ المميِّزةِ لِأشعارِ شُعراءِ المدرسةِ الشّاميّة في الأعصُرِ السّابقةِ لِعَصْره، وفي عَصْره هو. ونُسمِّي فيما يأتي أظهَرَ هذه الخاصّيّات:

أوّلًا- التّفوّقُ والسَّبْقُ:

يَلْحظُ الثّعالبيُّ النَّيْسابوريُّ تفوّقَ شِعْرِ الشّاميّينَ على شِعْرِ عَرَبِ العِراق وما يجاورُها في الجاهليّةِ والإسلام، وذلك إذ يقول: «لم يَزَلْ شُعَراءُ الشَّأْم وما يقارِبُها أَشْعَرَ مِن شُعَراءِ عَرَبِ العِراق وما يُجاورُها، في الجاهليّةِ والإسلام»(١٤).

والقِراءةُ المتأنّيةُ لِهذه المَقالةِ تَهْدي إلى استنتاجاتٍ مُهمّة. مِن ذلك أنّ الثّعالبيَّ، وهو العربيُّ المُقيمُ في نَيسابورَ، حاضِرةِ خُراسان، يَرْبِطُ بينَ الشِّعْرِ العَرَبيّ وعُروبةِ القَلْبِ واليَدِ واللّسان. فإنّه في شأنِ الشّامِ قال: «شُعَراءُ الشّأم»، ولم يَقُلْ: شُعَراءُ عَرَب الشّام؛ فكأنَّ شُعراءَ الشّامِ عَرَبٌ خُلَّصٌ، لَيْسَ بينَهم مَنْ هو غيرُ عربيّ. أمّا في شأنِ العِراق فقال: «شُعَراءِ عَرَب العِراق..»، وكأنّه يُلْمِحُ إلى عُروبةِ الأشخاصِ، وعُروبةِ الشِّعْر، ويجعَلُ مِن ذلك مِعْيارَ قِيمةٍ. ومِن ذلك أيضًا أنّه يَعتمِدُ عِيارَ العَراقةِ والامتدادِ التّاريخيّ. فثَمّةَ في الشّامِ تقليدٌ شِعْريٌّ قديمُ العَهْدِ ومتأصِّلٌ old-aged poetic tradition، فَضاؤه الزّمانيُّ الجاهليّةُ والإسلامُ. ولَعَلّ مِثْلَ هذا الفضاءِ غيرُ متوفِّرٍ في العِراق، بِمَعْنًى مِن المعاني. ولا ينبغي أن يُفْهَمَ مِن هذا أنّ العِراقَ في ذلك العَصْرِ هَيِّنُ الأَمْرِ في مَجالِ الشِّعْرِ والشُّعَراء، بل لَعلَّه يُريدُ خصائصَ فَنّيّةً في الشِّعْرِ الشّاميِّ لَيْسَتْ متوفّرةً بِالقَدْرِ نَفْسِه في أشعارِ البيئاتِ العربيّةِ الأخرى، ومِنها العِراقُ.

ويُبيِّنُ الثّعالبيُّ أسبابَ تبريزِ القومِ قديمًا وحَديثًا عَلَى مَن سِواهم في

الشّعر، جاعِلًا إيّاها ثلاثةً:

١- قُرْبُهم مِن خِطَطِ العرَبِ ولا سيّما أهل الحجاز، وبُعْدُهم عن بلادِ العَجَم، وسَلامةُ ألسنتهم مِن الفسادِ العارضِ لِألسنةِ أَهْلِ العِراق لِمُجاورةِ الفُرْسِ والنَّبَط ومُداخلتِهم إيّاهم. ويَصِحُّ هذا على شُعَراءِ الشَّام قديمًا وفي عَصْرِ الثّعالبيّ في القرن الرّابع وأوائل الخامس.

ولا يَجِدُ المتأمِّلُ صُعوبةً في استنتاجِ أنّ الثّعالبيَّ في تقويمِه الشِّعْرَ العربيَّ يُعَوِّلُ في المقامِ الأوّلِ على فَصاحةِ اللّغةِ ونَقائِها، وعلى المَلَكةِ اللِّسانيّةِ المتأصِّلةِ لَدَى شُعَراءِ المدرسةِ الشّاميّة. ولَعلَّ الحساسيّةَ اللّغويّةَ القويّةَ عندَ هذا النّاقدِ تَرْجِعُ إلى نَشْأتِه في بِلادِ العَجَم واستيطانِه إيّاها، ومُعاصَرتِه هناك مُتشاعِرينَ كثيرينَ ينطبقُ عليهم مُؤدَّى الحديثِ الشّريف: «المؤمنونَ إخوةٌ تتكافأُ دِماؤهم، ويَسْعَى بذِمَّتهم أَدْناهم، وهم يَدٌ على مَن سِواهم». ولا ضيرَ في أن نقولَ هنا إنّه أدرى مِن غيرِه بِتأثيرِ الصَّفاءِ اللّغويّ في قوّة المُنجَزِ الشّعريّ. ولعلّه ينتصِرُ هنا بِقوّةٍ لِلْخصائصِ العربيّةِ الأصيلةِ في الشّعر. وربّما يكون العامِلُ الذي دَعاه إلى تقديمِ شعراءِ الشّام في عصره على غيرِهم لَحْظُهُ قَدْرًا صالحًا مِن هذه الخصائصِ في شِعْرِهم.

٢- جَمْعُهم بينَ فَصاحةِ البداوةِ وحَلاوةِ الحضارة:

لا ضَيْرَ، فيما أحسَبُ، في أن يُشارَ إلى أنّ المُنتَجَ الشِّعريَّ بِضاعةٌ تُساقُ يقينًا إلى السُّوقِ التي تَروجُ فيها، وتتأثَّرُ خصائصُها بالصِّفاتِ المنشودةِ لِهذه البضاعةِ في هذه السّوق. وأنتَ لا تَعدَمُ آثارَ ذلك في أشعارِ بعض الوافدين على الشّام مِن شُعراءِ الحِجاز مَثَلًا. ولَنا في مِدَحِ النّابغةِ وحسّان بنِ ثابتٍ لِلْغساسِنةِ الشّاميّينَ قَبْلَ الإسلامِ ما يُظهِر أنّ الشّاعِرَيْنِ كانا في تِلْك المِدَح يتهيّأانِ لِتقديمِ مَديحٍ مؤثِّرٍ يقبلُهُ الذّوقُ الشّاميُّ المُستجيبُ بِقُوّةٍ لِلْأشعارِ الجامِعةِ بينَ فصاحةِ

البداوةِ وحَلاوةِ الحضارة. تَجِدُ ذلك مَثَلًا في تضاعيفِ مِدَحِ النّابغةِ الذّبيانيِّ الحجازيّ في الغساسِنة، في مِثْلِ قولِه:

رِقــاقُ النِّعــالِ، طَيِّــبٌ حُجُــزاتُهم يُحيَّــوْنَ بِالرَّيحــانِ يَــومَ السَّباسِــبِ

وفي مِثْلِ قولِ حسّان الحجازيِّ أيضًا يَمدَحُهم:

أولادُ جَفْنــةَ حَــوْلَ قَبْــرِ أبــيهِم قَبْــرِ ابــنِ ماريــةَ الكــريمِ المُفْضِــلِ

يُغشَــوْنَ حتّــى مــا تَهِــرُّ كِلابُهــمْ لا يَســألونَ عَــنِ السَّــوادِ المُقْبِــلِ

يَسْــقُونَ مَــن وَرَدَ البَــريصَ علــيهِم بَــرَدَى يُصــفَّقُ بِــالرّحيقِ السَّلْسَــلِ

وفي متناولنا، إزاءَ ما نحنُ فيه، أن نقولَ: إنّ أشعارَ الشَّاميّينَ منذ وقتٍ مُبَكِّرٍ وَثْبَةُ تَطوُّرٍ جامِعٍ بينَ خصائصَ أصيلةٍ أثيلةٍ، ونَماءٍ أنيقٍ جَذّابٍ لِهذه الخصائص.

٣- إفادتُهم مِن رُعاةٍ عَرَبٍ، مَشْغوفينَ بالأدب، ذوي مَجْدٍ وكرَم وجَمْعٍ بينَ رِياستَي السّيفِ والقَلَم، مُحِبِّين لِلشّعر، مُحْسِنينَ لِتمييزِ جيِّدِه مِن رَديئه، مُثيبينَ على الجيِّدِ مِنه.

وفي القراءةِ العميقةِ لِما قَصَدَ إليه الثّعالبيُّ هنا، في مقدورِ المتأمّلِ أن يستنبطَ أنّ الرَّجُلَ يتحدّثُ عن بيئةٍ أدبيّةٍ عربيّةٍ، غيرِ موجودةٍ في عَصْرِها في مكانٍ آخَر. ويُسمِّي الثّعالبيُّ هذه البيئةَ: الحاضّةَ على انبعاثِ القرائحِ في الإجادة. واللّافتُ أنّه يتحدّثُ عن هذَيْنِ العامِلَيْنِ الأخيرَيْنِ معًا، فيقولُ: «ولَمّا جَمَعَ شُعراءُ العَصْرِ مِن أهلِ الشّامِ بينَ فصاحةِ البَداوةِ وحلاوةِ الحضارةِ، ورُزِقوا مُلُوكًا وأمراءَ مِن آلِ حَمْدانَ وبَني وَرْقاءَ هم بَقيّةُ العربِ، والمشغوفونَ بالأدَبِ، والمشهورونَ بالمَجْدِ والكَرَم، والجَمْعِ بينَ أدَواتِ السّيفِ والقَلَم، وما مِنهم إلّا أديبٌ جَوادٌ، يُحِبُّ الشِّعْرَ وينتقِدُه، ويُثيبُ على الجيِّدِ مِنه، فيُجزِلُ ويُفضِلُ = انبعثَتْ قرائحُهم في الإجادة، فقادوا مَحاسِنَ الكلامِ بِألْيَنِ زِمام، وأحسَنُوا وأبدعوا ما شاؤوا»[١٥].

ويتحدّثُ الثّعالبيُّ هنا عن فَضاءٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ وفَنّيٍّ يَصِحُّ أن يُقالَ فيه قولُ القائل:

هَيْهــاتَ أن يــأتي الزّمــانُ بِمِثْلِــهِ إنّ الزّمـــــانَ بِمِثْلِـــــهِ لَبخيـــــلُ

فالظّاهِرُ تمامًا مِمّا قاله صاحِبُ اليتيمة أنّنا في بَلاطِ سَيْفِ الدّولة أمامَ منظومةٍ متكاملةٍ مِن المُثيراتِ لِلْإبداعِ الشّعريّ والتّجديدِ فيه إلى الغاية التي قَلَّ أن تَجِدَ بَعْدَها غاية. وإخالُ أنّ فَرْطَ التحرّزِ مِن المبالَغاتِ، يَدْفَعُ في كثيرٍ مِن الأحيانِ إلى التّضحيةِ بالحقائق، وغَمْطِ الحقوقِ والحُظوظ؛ وهي طبيعةٌ ضَرَرُها أشَدُّ مِن نفعها. وأقصِدُ هنا إلى القولِ إنّ ما ذَكَرَه الثّعالبيُّ عن الرِّعايةِ الأدبيّةِ في بَلاطِ سَيْفِ الدّولة، والدَّفْعِ باتّجاهِ نَهْضةٍ إبداعيّةٍ في مجال الشِّعْرِ والأدب، ينبغي أن يَلْقَى قَدْرًا مِن الاهتمامِ لَدَى مؤرِّخِي الأدَبِ وناقدِيه والباحثينَ في الجَماليّةِ الشّعريّةِ خاصّةً. ولَعَلّ مِمّا يُؤكِّدُ ما نحنُ إزاءَه قولَ الثّعالبيّ: «وكان أبو بكرٍ الخوارزميُّ في رَيْعانِ عُمُرِه، وعُنفوانِ أمْرِه، قد دَوَّخَ بلادَ الشّام، وحَصَلَ مِن حَضْرةِ سَيْفِ الدّولةِ بِحَلَبَ في مَجْمَعِ الرّواةِ والشّعراء، ومَطْرَحِ الغُرَباءِ الفُضَلاء، فأقامَ ما أقامَ بِها معَ أبي عبدِاللهِ بنِ خالَوَيْهِ، وأبي الحَسَنِ الشِّمشاطيِّ، وغيرِهما مِن أئمّةِ الأدباءِ، وأبي الطّيِّبِ المُتنبِّي، وأبي العَبّاسِ النّامي، وغَيْرِهما مِن فُحولِ الشّعراء، بينَ عِلْمٍ يَدْرُسُه، وأدَبٍ يقتبسُه، ومحاسِنِ ألفاظٍ يستفيدُها، وشَوارِدِ أَشْعارٍ يَصيدُها. وانقلَبَ عنها وهو أحَدُ أفرادِ الدّهر، وأُمراءِ النَّظْمِ والنَّثْر. وكان يقولُ: ما فَتَقَ قَلْبي، وشَحَذَ فهمي، وصَقَلَ ذهني، وأرهفَ حَدَّ لِساني، وبَلَغَ هذا المبلَغَ بي إلّا تلك الطّرائفُ الشّاميّةُ، واللّطائفُ الحلبيّةُ، التي عَلِقَتْ بِحِفْظي، وامتزجَتْ بأجزاءِ نفسي، وغُصْنُ الشّبابِ رطِيبٌ، ورِداءُ الحداثة قَشيبٌ. وما كان أكثرَ ما يُنشِدُني ويُكتبُني مِمّا يَضَنُّ به على غيري مِن تلك الغُرَرِ التي تَجْري مَجْرَى السِّحْرِ، والمُلَحِ التي يَقطُرُ مِنها الظّرْفُ، وأنا أكتبُها في أماكِنِها مِن أبوابِ هذا

القِسْمِ الأوّل، بِمَشيئةِ الله تعالى»[١٦].

وفي مُستطاعِنا أن نتبيّنَ هنا عناصِرَ مَدْرَسةٍ شِعْريّةٍ مِن الطِّرازِ الرّفيع؛ فثَمّةَ في بَلاطِ سَيْفِ الدّولةِ «مَجْمَعُ الرّواةِ والشّعراءِ، ومَطْرَحُ الغُرَباءِ الفُضلاء»، الذي أساتذتُه أئمّةُ الأدَبِ في زمانِهم، مِن مِثْلِ ابنِ خالَوَيْهِ، وأبي الحَسَن الشِّمْشاطيّ، وغيرِهما مِن أئمّةِ الأدباء؛ وفُحولُ الشُّعَراءِ مِن مِثْلِ أبي الطّيِّبِ المتنبّي وأبي العبّاسِ النّامي وغيرِهما مِن مُفْلِقي الشّعراء. وما يُدْرَسُ في هذا المَجْمَعِ في غايةِ النَّفاسةِ في بابه؛ وهو عِلْمٌ وأدَبٌ ومَحاسِنُ ألفاظٍ وشَواردُ أشعار. ونَحْسَبُ أنّ العِلْمَ الذي يَتحدّثُ عنه الخوارزميُّ هو عِلْمُ العربيّةِ نَحْوًا وصَرْفًا ومَتْنًا. أمّا محاسِنُ الألفاظِ وشَواردُ الأشعارِ فَمادّةٌ لِلرِّواية، أبرزُ خصائصِها الرّقّةُ والدّماثةُ والصّفاءُ والصِّحّةُ والإصابةُ في المفردات، والأشعارُ الأخّاذةُ التي تتناهبُها الحوافِظُ وتَعْلَقُ بالأرواحِ وتطيرُ في الآفاق.

أمّا ما يُسمَّى في عَصْرِنا المُخْرَجاتِ التّعليميّةَ، فَنموذجُه هذا الخوارزميُّ مِن بِلادِ خُراسانَ الشّرقيّة. وكان قد وَفَدَ على البلاطِ الحَمْدانيّ شابًّا غَضَّ الإهاب، وانقَلَبَ عنه وهو «أحَدُ أفرادِ الدَّهْرِ، وأمراءِ النَّظْمِ والنَّثْر»، كما يقولُ صاحِبُ اليتيمة. أمّا عناصِرُ القُوّةِ الشّعريّةِ والتّبريزِ في ميدانِ القَريض، التي ظَفِرَ بها مِن هذه المدرسةِ الشّعريّةِ الشّاميّة، فنُعيدُ قَولَه في شأنِها: «ما فَتَقَ قلبي، وشَحَذَ فهمي، وصَقَلَ ذهني، وأرهفَ حَدَّ لِساني، وبَلَغَ هذا المبْلَغَ بي، إلّا تلك الطّرائفُ الشّاميّةُ، واللّطائفُ الحَلَبيّةُ التي عَلِقَتْ بِحِفْظي وامتزجَتْ بِأجزاءِ نفسي».

ومِن تلاميذِ هذه المدرسةِ الشِّعْريّةِ الشّاميّةِ، مِن غيرِ الشّاميّينَ، القاضي أبو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ عبدِالعزيز الجرجانيّ، مؤلِّفُ الكتابِ النّقديِّ النّفيس «الوَساطة بينَ المتنبّي وخُصومِه». وفي شأنِ هذه التَّلْمذةِ وتأثيرِها في الإبداعِ الشّعريّ يقولُ

الثّعالبيُّ: «ومِمّن خَرّجَتْهُ تلك البلادُ، وأخرجَتْهُ، وكلامُه مقبولٌ محبوبٌ: القاضي أبو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ عَبْدِالعزيزِ الجُرْجانيُّ؛ فإنّه جَنَى ثِمارَها، واستَصْحَبَ أنوارَها، حتّى ارتقَى إلى المَحَلِّ العَلِيِّ، وتَطبَّعَ بِطَبْعِ البُحْتُرِيّ»[١٧].

ثانيًا- الجَزالةُ والعُذوبةُ، والفَصاحةُ والسَّلاسةُ:

إنّه بِمَعْنًى مِن المعاني تَعْني الجزالةُ والعذوبةُ عَيْنَ الفَصاحةِ والسّلاسة، وهما صِفتانِ في اللّغةِ والأسلوبِ تَنْفيانِ عنهما أقذاءَ الرَّكاكةِ والرّطانةِ والسُّوقيّة، وتُشيرانِ إلى آثارٍ مِن الرّقّةِ والحلاوةِ، وسُهولةِ الإدراكِ، والعُلوقِ بِالقَلْبِ، والجَرْيِ على اللّسان. وتُعدُّ الأشعارُ الموصوفةُ بِهاتَيْنِ الصّفتَيْنِ مِن قَبيلِ «البدائعِ واللّطائف».

وابتغاءَ تأكيدِ تَعيُّنِ هذه الصِّفاتِ في أشعار شُعراءِ المدرسةِ الشّاميّة في عَصْرِ سيفِ الدّولة، نَسوقُ هذه الرّوايةَ التي ذَكرَها الثّعالبيُّ في اليتيمة:

«وأخبرَني جَماعةٌ مِن أصحابِ أبي القاسِمِ إسماعيلَ بنِ عَبّادٍ أنّه كان يُعجَبُ بِطَريقتهم المُثْلَى، التي هي طريقةُ البُحْتُرِيِّ في الجَزالةِ والعُذوبةِ، والفَصاحةِ والسّلاسة، ويَحْرِصُ على الجديدِ مِن أشعارِهم، ويَستَمْلي الطّارئينَ عليه مِن تلك البلادِ ما يحفظونَه مِن تلك البدائعِ واللّطائفِ، حتّى كسَّرَ دفترًا ضَخْمَ الحَجْمِ عَلَيها(*)، وكان لا يُفارقُ مَجْلِسَه، ولا يَمْلَأُ أحَدٌ مِنه عينَه غيرَه. وصار ما جمَعَه فيه على طَرَفِ لِسانِهِ، وفي سِنِّ قَلَمِه، فطَورًا يُحاضِرُ به في مُخاطَباتِه ومُحاوراتِه، وتارةً يَحُلُّه، أو يُورِدُه كما هو في رسائِلِه»[١٨].

وصِدْقُ الأُحدوثةِ واضِحٌ هنا، فالثّعالبيُّ يَنقُلُ عن جَماعةٍ، ويأتي بتفاصيلَ ودقائقَ تَهَبُ الرّوايةَ صِدْقًا على صِدْق. وفي هذه الرّوايةِ أشياءُ أُخَرُ مُهمّةٌ؛ مِنها أنّ بَطَلها الصّاحِبُ بنُ عَبّاد، الذي كان أُمّةً في رِعايةِ الشِّعْرِ وحِفظِه وتَسقّطِ أخبارِه،

*- أي جعَلَه على عِدّةِ أبوابٍ.

والمكافأةِ على الجيِّدِ الممتازِ مِنه. ومِنها أنّ الصّاحِبَ كان مُعْجَبًا بِطريقةِ الشّاميِّينَ المُثْلَى، وهي طريقةُ البُحْتُرِيِّ في الجَزالةِ والعُذوبة، والفَصاحةِ والسّلاسة، وأنّه كان مُتابِعًا جيِّدًا لِلْجَديدِ مِن أشعارِهم، مُستمليًا الطّارئينَ عليه مِن تلك البلاد ما يستظهِرونَه مِن بَدائعِ الشّاميّينَ ولَطائفهم، وأنّه استعملَ المادّةَ الشّعْريّةَ الوافدةَ عليه مِن الدّيارِ الشّاميّةِ في مُخاطباتِه ومحاوراته، وفي رسائله.

وغيرُ خافٍ البتّةَ هنا أنّنا أمامَ مدرسةٍ شِعْريّةٍ شاميّةٍ، لَها أساتذةٌ ومُقرّراتٌ دَرْسيّةٌ، ومبادئُ وأصولٌ فنّيّةٌ مُراعاةٌ، يَحْمِلُ على الانقيادِ لَها ذَوْقٌ شِعْريٌّ واضِحُ المَعالِم، بَيِّنُ القَسَمات، مُتناقَلٌ مُتعالَمٌ بينَ المُنتِجينَ لِلشِّعْرِ في هذه المدرسة. ولَعَلّنا نقولُ حَقًّا حينَ نذهَبُ إلى القولِ إنّه لا يَبْرَعُ في هذه المدرسةِ إلّا ذو بأسٍ شديدٍ في حَلْبةِ القريض، شاعِرٌ حادُّ الجَنانِ، طَيِّعُ اللِّسانِ، يأتي إلى سُوقِ الشّعرِ بِما تتناهَبُه أحداقُ القلوب، ويَفغَمُ(*) مَشامَّ المُتمتِّعينَ مِنه أطايبُ الطّيوب. وكيفَ لا يستجيبُ آمُّو البلاطِ الحَمْدانيّ في حَلَب لِمطالِبِ الذّوقِ الفَنِّيّ المنشودِ في الشّام عامّةً وفي بلاطِ سيفِ الدّولةِ خاصّةً وحَضْرتُه كما يقولُ صاحِبُ اليتيمة: «مَقْصِدُ الوفودِ، ومَطْلَعُ الجُودِ، وقِبْلةُ الآمال، ومَحَطُّ الرِّحالِ، ومَوْسِمُ الأدباءِ، وحَلْبةُ الشّعراء. ويقالُ إنّه «لم يجتمِعْ قَطُّ بِبابِ أَحَدٍ مِن الملوكِ، بَعْدَ الخُلَفاءِ، ما اجتمَعَ بِبابِه مِن شُيوخِ الشِّعْرِ، ونُجُومِ الدّهر. وإنّما السُّلْطانُ سُوقٌ يُجْلَبُ إليها ما يَنفُقُ لَدَيها»[١٩].

أمّا مَظاهِرُ هذه الجَزالةِ والعُذوبة، والفَصاحةِ والسّلاسةِ، فقد مَثّلَ لها أصحابُ الصّاحِبِ إسماعيلَ بنِ عبّاد، في رِواية الثّعالبيّ، بِمِثْلِ قولِ القائل:

سَلامٌ على تلكَ المَعاهِدِ إنّها شَريعةُ وِرْدي، أو مَهَبُّ شَمالي

*- فَغَمَه الطِّيبُ: سَدَّ خَياشيمَه.

لَيـاليَ لـم نَحْـذَرْ حُـزونَ قَطيعـةٍ ولـم نَمْـشِ إلّا فـي سُـهولِ وِصـالِ
فقَدْ صِرْتُ أرضَى مِن سَواكنِ أرضِها بِخُلَّـبِ بَـرْقٍ، أو بِطَيْـفِ خَيـالِ

وقولِ الآخَر:

إذا دَنَـتِ المَنـازِلُ زاد شَـوْقي ولا سِـيَما إذا بَـدَتِ الخِيـامُ
فَلَمْـحُ العَـيْنِ دُونَ الحَـيِّ شَـهْرٌ ورَجْـعُ الطَّـرْفِ دُونَ السَّـيْرِ عـامُ

وقولِ الآخَر:

فسَـقَى اللهُ بَلْـدةً أنـتَ فيهـا كـدُموعي عنـدَ اعتـراضِ الفِـراقِ
وأرانيـكَ، فالصَّـبا قـد تَرَقَّـتْ يـا بروحـي إلـى أعـالي التّراقـي[٢٠]

ثالثًا- استيفاءُ البَراعةِ، وكمالُ الصّناعة، ورَونقُ الطّلاوة:

لِأنّ كلَّ شاعرٍ ابنُ بيئتِه وعَصْرِه، وما يَستحسِنُه ويَروقُه دَرَجةٌ ما مِن دَرَجاتِ طَبيعةٍ ما يستحسِنُه أهلُ زَمانِه، نَجِدُ الثّعالبيَّ، المؤرِّخَ الأدبيَّ والنّاقِدَ المتميِّزَ لِأدَب ذلك العَصْر، يُقيمُ وزنًا كبيرًا لِتعبيرِ شُعراءِ عَصْرِ سَيْفِ الدّولة عن الحساسيّةِ الجَماليّةِ لِعَصْرِهم وبيئتهم. بل يَبدُو الأمْرُ كأنّ الرَّجُلَ يَرْبِطُ رَبْطًا قويًّا بينَ الذّوقِ الفَنِّيّ العامّ في عَصْرٍ ومِصْرٍ، وبينَ الذّوق الشِّعْريّ الذي يُصَوِّره على نحوٍ ما شُعراءُ هذَيْنِ العَصْرِ والمِصْر، ويتحدّثُ عن تأثيرِ المُشارَكةِ في الذّوق بينَ الشّاعِرِ ومُعاصِريه ومُواطِنيه، وعن اتّجاهٍ عامٍّ في الذّوقِ الشِّعْريّ العربيّ نحوَ الرّقّةِ والدّماثةِ واللُّطْفِ، معَ تَقدُّم الزّمن. يقولُ صاحِبُ اليتيمة في هذا الشّأن:

ولَمّا كان الشِّعْرُ عُمْدةَ الأدَب، وعِلْمَ العَرَبِ الذي اختصَّتْ به عن سائرِ الأمم، وبِلِسانهم جاء كتابُ اللهِ المُنْزَلُ، عَلَى النّبيِّ مِنهم المُرْسَلِ، صَلَواتُ الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلّم، كانَتْ أشعارُ الإسلاميّينَ أرقَّ مِن أشعارِ الجاهليّينَ، وأشعارُ

المُحْدَثينَ ألطفَ مِن أشعارِ المتقدِّمينَ، وأشعارُ المُولَّدينَ أبدعَ مِن أشعارِ المُحْدَثينَ، وكانَتْ أشعارُ العَصْريّينَ أجمَعَ لِنَوادِرِ المَحاسِن، وأنظَمَ لِلَطائفِ البدائع، مِن أشعار سائرِ المذكورِين؛ لِانتهائها إلى أبعدِ غاياتِ الحُسْن، وبُلوغِها أقصَى نِهاياتِ الجودة والظّرْف، تكادُ تخرُجُ مِن بابِ الإعجابِ إلى الإعجاز، ومِن حَدِّ الشِّعْرِ إلى السِّحْر. فكأنّ الزّمانَ ادّخَرَ لَنا مِن نَتائجِ خواطِرِهم، وثَمَراتِ قَرائحِهم، وأبكارِ أفكارهم، أتمَّ الألفاظِ والمعاني استيفاءً لِأقسامِ البَراعة، وأوفرَها نَصيبًا مِن كمالِ الصَّنْعة، ورَونقِ الطّلاوة.

وكــذاكَ قَــدْ ســادَ النّبــيُّ مُحمَّــدٌ كُــلَّ الأنــامِ، وكــان آخِــرَ مُرْسَــلِ[٢١]

وربّما يكونُ مُفيدًا أن أُوضِحَ قليلًا الدِّلالاتِ النّقْديّةَ لِمُصطلحاتِ: البَراعة والصَّنْعة والطّلاوة، التي عُدّتْ في مَقالةِ الثّعالبيِّ هذه خاصِّيّاتٍ لِشِعْرِ القرنِ الرّابعِ الهجريِّ، ولِشِعْرِ عَصْرِ سَيْفِ الدّولة خاصّةً:

– أمّا البَراعةُ في اللُّغة فهي مِن قولِهم: بَرَعَ الرَّجُلُ، إذا فاقَ أصحابَه في العِلْمِ وغيرِه، فهو «بارِعٌ». وتعني في المصطَلَحِ النّقديّ في ذلك العَصْر: التّفوّقَ في المُؤدَّى المنْجَزِ مِن الشِّعر. وقد عَبّرَ عن ذلك الثّعالبيُّ نفسُه حينَ قال في شأنِ تجويدِ شُعراءِ عَصْرِه، الذينَ أسْماهم «العَصْرِيِّينَ»: «وكانَتْ أشعارُ العَصْريّينَ أجمعَ لِنَوادِرِ المَحاسِن، وأنظَمَ لِلَطائفِ البدائعِ مِن أشعارِ سائرِ المذكورينَ؛ [السّابقين] لِانتهائها إلى أبعَدِ غاياتِ الحُسْن، وبُلوغِها أقصَى نِهايات الجودة والظّرْف، تكادُ تَخرُجُ مِن بابِ الإعجابِ إلى الإعجاز، ومِن حَدِّ الشِّعْرِ إلى السِّحْر..».

– وأمّا الصَّنْعةُ فهي في اللّغةِ عَمَلُ الصّانِعِ. وحينَ تَعمَلُ «الصَّنْعةُ» في إنتاجِ الشِّعْر يعني ذلك التَّخْليقَ والأداءَ. وتعني «الصَّنْعةُ» في الشِّعْرِ – في المآلِ الأخير – قَصْدِيَّةً وإعمالًا لِأدواتٍ فِكْريّةٍ وفَنِّيّةٍ، في مادّةٍ لُغَويّة. والشّاعِرُ عندَ اليونانيّينَ «صانِعٌ»، جَعَلَتِ الإنكليزيّةُ مُقابِلَهُ فيها لَفْظَ maker. وكمالُ الصَّنْعةِ

هنا مَعْناهُ إتقْانُ الأداءِ واستيفاءُ العناصِرِ والمكوِّنات.

– وأمّا «الطَّلاوةُ»، بِضمِّ الطّاءِ وفَتْحِها، فهي في اللّغةِ الحُسْنُ والجَمالُ الظّاهِرُ. وتنطوي في الاصطلاحِ النّقديِّ القديمِ على جُمْلةِ مَعانٍ، مِنْ مِثْل: الحُسْنِ والبَهْجةِ والقَبولِ والسِّحْر. وكُلُّ هذه صِفاتٌ مَتينةُ الارتباط بِالحساسيّةِ الجَماليّة. وتعبيرُ «رَونَق الطّلاوة» يَعْني أَلْقَ الجَمالِ الشِّعْريِّ، الذي يَهجُمُ على الحواسِّ قَبْلَ العقول، ويُحرِّكُ النّفوسَ، ويَهُزُّ الطّباع.

ويبدو أنّ الثَّعالِبيَّ، المُذْهَبَ بِأشعارِ شُعراءِ المدرسةِ الشّاميّة، لا يَعْدَمُ مَن يؤيِّدُه في شأنِ سَبْقِ الشّاميِّينَ إلى خاصِّيّاتٍ تُعْلي مِن شأنِ شِعْرِهم، وتَضْمَنُ ثَناءَ المدقِّقينَ على صَنْعَتِهم. فهذا مَثَلًا المرحومُ الدّكتور زكي مُبارك يقولُ:

«وأَهْلُ الشّامِ في الأدَبِ القديمِ تَغْلِبُ عليهم رِقّةُ الطَّبْعِ؛ ولهم شَغَفٌ بِصُوَرِ الجَمال؛ ونَزْعتُهم الغَزَليّةُ فيها لِينٌ يَندُرُ مِثْلُه في مِصْرَ والعِراق. وهذا الذي استَوْحَيْناه مِمّا قرأنا لِشُعَراءِ الشّامِ في المعاني الحِسِّيّةِ والوِجْدانيّة»[٢٢].

– أعلامُ المَدْرسةِ الشِّعْريّةِ الشّاميّةِ في ذلك العَصْر:

اللّافتُ في الحياةِ الأدبيّة في عَصْرِ سَيْف الدّولة أنّ رعايتَه الشِّعْرَ فَعَلَتْ فِعْلَها في إتاحةِ فَضاءٍ فَنِّي يجذِبُ إليه شُعراءَ كبارًا مِن الدّيارِ الشّاميّة ومِن عِراقَي العرب والعَجَم ومِن خُراسانَ وما وراءَ النّهر. أي إنّه نَشَأ في بلاطِ سَيْفِ الدّولة ما يُشْبِهُ أن يكونَ «اتّحادًا» لِلشُّعَراءِ العَرَب في ذلك العَصْر. ولا يُشَكُّ في أنّ مَن يَفِدونَ على هذا البلاط مِن الشّعراءِ هم مِن الطِّرازِ المبدِعِ المتْقِن، وأنّ الأشعارَ التي تُقدَّمُ ثَمّةَ مِن الطِّرازِ المهذَّبِ المحكَّكِ المُهيَّأ لِقَبولِ الأنظارِ الفاحِصةِ النّاقدةِ؛ مِن الأميرِ الحَمْدانيّ نفسِه، ومِن بِطانته مِن عُلَماءِ العربيّة وشُعرائها الكبار. ويَخالُ المتأمِّلُ أنّه وُجِدَتْ في بلاطِ سَيْفِ الدّولة في حَلَبَ «بيئةٌ شِعْريّةٌ» مُحَرِّضةٌ جدًّا

على التّنافُسِ في الإجادةِ والاتقانِ وبُلوغِ الغايات، مِن الضّرْبِ الذي يَقِلُّ أن نَجِدَ مِثْلَه في مكانٍ آخَرَ في التّاريخِ الأدبيِّ العربيّ. وأَعْرِضُ في هذه المَنْدوحةِ رِوايةً تُصوِّرُ جيِّدًا بعضَ ما أريدُ أن يَعْرِفَه جمهورُنا الكريم. يقولُ الثّعالبيُّ: «وكان كُلٌّ مِن أبي محمّدٍ، عبدِالله بنِ محمّدٍ الفَيّاضِ الكاتب، وأبي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ محمّدٍ الشِّمشاطيّ، قد اختار مِن مَدائحِ الشُّعَراءِ لِسَيْفِ الدّولةِ عَشَرةَ آلافِ بيت، كقولِ أبي الطَّيِّب المتنبِّي:

خَليلَـيَّ، إنّـي لا أَرَى غيـرَ شـاعِرٍ ... فلِـمْ مِـنهمُ الـدَّعْوى ومِنِّـي القَصـائدُ

فـلا تَعْجَبـا، إنّ السُّـيوفَ كثيـرةٌ ... ولكـنّ سَـيْفَ الدّولـةِ اليـومَ واحِـدٌ

لَهُ مِن كَريمِ الطَّبْعِ في الحَرْبِ مُنتَضٍ ... ومِـن عـادةِ الإحسـانِ والصَّـفْحِ غامِـدُ

ولَمّـا رأيـتُ النّـاسَ دُونَ مَحَلِّـهِ ... تيقَّنْـتُ أنّ الـدّهْرَ لِلنّـاسِ ناقِـدُ[٢٣]

وكقَوْلِ السَّرِيِّ بنِ أحمدَ المَوْصليّ [الرَّفّاء]:

أَعَزْمتُـكَ الشِّـهابُ أمِ النّهـارُ؟- ... أراحَتُـكَ السَّـحابُ أم البِحـارُ؟

خُلِقْـتَ مَنِيّـةً ومُنًـى، فأضـحَتْ ... تَمـورُ بِـكَ البسـيطةُ، أو تُمـارُ

تُحَلِّـي الـدّينَ أو تَحْمـي حِمـاهُ ... فأنـتَ عَلَيْـهِ سُـورٌ أو سِـوارُ

سُـيوفُكَ مِـن شَـكاةِ الثَّغْـرِ بُـرْءٌ ... ولكـنْ لِلْعـدا فِيهـا بَـوارُ

وكَفّـاكَ الغَمـامُ الجَـوْنُ يَسْـري ... وفـي أحشـائِهِ مـاءٌ ونـارُ

يَمـينٌ مِـن سَـجيّتِها المَنايـا ... ويُسْـرَى مِـن عَطيّتِهـا اليَسـارُ

وذَكَرَ الثّعالبيُّ مِن اختياراتِ هذَيْنِ الأديبَيْنِ مِن مِدَح سَيْفِ الدّولة نَماذِجَ شِعْريّةً لِأبي فِراسٍ الحَمْدانيّ، وأبي العبّاسِ النّامي، وأبي الفَرَجِ البَبّغاءِ مِن شُعَراء المدرسةِ الشّاميّة، ولِأبي نَصْرِ بنِ نُباتة، وهو مِن شُعَراءِ العِراق.

ويبدو مِن هذه الرّواية، ومِن التّأريخِ الواقعيّ الذي قدّمَه الثّعالبيُّ في اليتيمة لِهذه الحالةِ الإبداعيّةِ الشِّعريّة، أنّنا إزاءَ إطارٍ عِلْميٍّ ثقافيٍّ مُتْرَعٍ بِإعمالِ القرائحِ الشِّعْريّة، مُشْبَعٍ بِرُوحِ النّقْدِ والتّفضيلِ بينَ نفائسِ الآثارِ الشِّعْريّة. وشَيْءٌ عاديٌّ تَمامًا أن يكون نِتاجُ ذلك كلِّه فَنًّا شِعْريًّا عَبّرَ عنه قولُ الشّاعِرِ الكبير أبي بَكْرٍ الخوارزميّ الذي أثبتْناه قَبْلُ: «ما فَتّقَ قلبي، وشَحَذَ فَهْمي، وصَقَلَ ذهني، وأرهفَ حَدَّ لِساني، وبَلَغَ هذا المبلَغَ بي، إلّا تلك الطّرائفُ الشّاميّةُ، واللّطائِفُ الحَلَبيّةُ، التي عَلِقَتْ بِحِفْظي، وامتزجَتْ بأجزاءِ نفسي»[٢٤].

ولَعلَّ في هذا الذي قَدَّمْنا ما يُنبئ عن مُستوياتِ الإجادةِ والتّبريزِ لَدَى جمهورِ شُعَراءِ المدرسةِ الشّاميّة، وبَعْضُ هؤلاءِ طَبْعًا ليسوا مِن البلادِ الشّاميّة، وانتقالُ الشّعراءِ أمرٌ معروفٌ منذ القديم.

ومِن شُعراءِ هذه المدرسةِ سَيْفُ الدّولةِ نفسُه، الذي يُعجَبُ صاحِبُ اليتيمة بقوله في وَصْفِ قَوسِ الغَمام:

وساقٍ صَبيحٍ، لِلصَّبوحِ دَعَوْتُهُ ... فقامَ، وفي أجفانِهِ سِنةُ الغُمْضِ

يَطوفُ بِكاساتِ العُقارِ كأنجُمٍ ... فمِنْ بَيْنِ مُنْقَضٍّ عَلَيْنا ومُنْفَضِّ

وقد نَشَرتْ أيدي الجَنوبِ مَطارِفًا ... عَلَى الجَوِّ دُكْنًا، والحَواشي على الأرضِ

يُطَرِّزُها قَوْسُ الغَمامِ بأصفَرٍ ... عَلَى أحْمَرٍ في أخْضَرٍ تحتَ مُبْيَضِّ

كَأَذْيالِ خَوْدٍ، أقبلَتْ في غَلائلٍ ... مُصَبَّغةٍ، والبَعْضُ أقصَرُ مِن بَعْضِ

يقولُ الثّعالبيُّ: «وهذا مِن التّشبيهاتِ الملوكيّةِ التي لا يكادُ يَحْضُرُ مِثْلُها السُّوقةَ»[٢٥]. فإذا صَحّتْ نِسْبةُ هذه الأبياتِ إلى الأميرِ الحَمْدانيِّ الكبير، فإنّها تَصْلُحُ نَموذجًا دالًّا عَلَى الإبداعِ الذي وَجَّهَ الإبداع، ورَعاه، وهيّأَ له جُمْلةَ أسبابِ الازدهارِ والنَّماء. وقد ذَكَرَ له صاحِبُ اليتيمةِ جُمْلةَ مَقْطَعاتٍ شِعْريّةٍ، جُلّها مِن

النّمطِ الجيّد. ومِن ذلك هذه الأبياتُ:

أُقبِّلُـــــهُ عَلَـــــى جَـــــزَعٍ　　كشُـــرْبِ الطّـــائرِ الفَـــزِعِ
رأى مـــــاءً، فأطْمَعَـــــهُ　　وخـــافَ عواقـــبَ الطّمَـــعِ
وصـــادفَ فُرْصـــةً فَـــدَنا　　ولـــم يَلْتـــذَّ بِـــالجُرَعِ

ويذكرُ صاحِبُ اليتيمةِ أسماءً كثيرةً لِمَن جَعَلَهم مِن شُعراءِ المدرسةِ الشّاميّة، ونكتفي لِضيقِ المقامِ بذِكْرِ الأعلامِ منهم. ولَعلّ في الطّليعةِ من هذه القائمة أبا الطّيّبِ المتنبّي، الذي قَصَرَ الثّعالبيُّ عليه بابًا كامِلًا مِن الجزء الأوّل مِن اليتيمة، عَنّنَه هكذا: «البابُ الخامِسُ في ذِكْرِ أبي الطّيّبِ المُتنبّي وما لَهُ، وما عليه». وامتدّ حديثُه عنه على أكثرَ مِن مئةِ صفحةٍ مِن صَفحاتِ اليتيمة. ومِن شُعراءِ المدرسةِ الشّاميّةِ الأعلامِ، عَدَّ الثّعالبيُّ أيضًا أبا فِراسٍ الحارثَ بنَ سعيد، الذي خَصّه بـ «البابِ الثّالثِ» مِن الجزءِ الثّالث. وجَعَلَ البابَ الرّابعَ «في مُلَح شِعْرِ آلِ حَمْدانَ أمراءِ الشّامِ، وقُضاتِهم، وكُتّابهم»، وذَكَرَ في هذه المَندوحةِ ثمانيةَ عَشَرَ شاعرًا. وعَدَّ الثّعالبيُّ مِن أعلامِ المدرسةِ الشّعريّةِ الشّاميّةِ في هذا العصر أسماءً لامِعةً في ديوانِ الشّعرِ العربيّ، مِن مِثْل: أبي العبّاسِ أحمدَ بنِ مُحمّد النّامي، وأبي الحُسَينِ النّاشئ الأصغرِ، وأبي القاسِمِ الزّاهي. وخَصّ أبا الفَرَجِ عبدَالواحِدِ البَبّغاءَ بِـ «الباب السّابع». كما ذَكَرَ أسماءً أُخَرَ مِن شُعراءِ الشّام أدخَلَ حديثَه عنهم في «البابِ التّاسِعِ» الذي جَعَلَ عنوانه: «مُلَحُ أهلِ الشّامِ ومِصْرَ والمغربِ، وطُرَفُ أشعارِهم ونَوادِرِهم»، وجَعَلَ مِنهم الشّاعِرَ كُشاجِمًا.

- المُحصَّلُ المُهِمُّ الأخيرُ:

قدّمَتِ «المدرسةُ الشّعريّةُ الشّاميّةُ في عَصْرِ سَيْفِ الدّولة» نَموذجًا يكادُ يكونُ فَذًّا في تاريخِ الشِّعْرِ العربيّ في الصّورةِ وفي المضمون. فكان أنِ اتّسَمَ

الغَرْسُ الشّاميُّ في الشِّعْرِ بالمتانةِ وشِدّةِ الأسْرِ وفَصاحةِ الأداءِ، وصَفاءِ البَداوةِ معَ حَلاوةِ الحضارة، واستخراجِ الجواهِرِ الشِّعْريّةِ مِن مَعادنِها. وقد توفّرتِ الشّامُ على امتدادِ الأعصُرِ على عَوامِلَ باعثةٍ على فَنٍّ شِعْريٍّ هو عنوانٌ دقيقٌ لِلْمِنْطقةِ وأهلِها. فالشّامُ حِجازُ الإسلام، وأهلوها هم أَهْلُ الحجازِ وقد جمعوا إلى الفصاحةِ الحجازيّةِ القُرَشيّةِ أَلْقَ الحياةِ الشّاميّةِ، ورِقّةَ الشّاميّينَ ودَماثةَ طِباعهم، وذَوقَهم الحَضَريَّ المُتْرَفَ، وأصالتَهم في الفَنِّ والإبداع.

وقد توفّرَ لِلشّامِ في عَصْرِ سيفِ الدّولةِ عُنصُرٌ عَربيٌّ يُقيمُ وزنًا كبيرًا لِلْفُروسيّةِ والبطولةِ وبناءِ الدّولة، ويحتفي إلى دَرَجةِ التّقديسِ بأربابِ الأحلامِ والأقلامِ والمبدعينَ في كلّ فَنٍّ مِن الفنون وعِلْمٍ مِن العلوم. وتَبَعًا لِهذا كلّه، ولِعَوامِلَ أُخَرَ كثيرةٍ، كانَتِ الشّامُ في ذلك العَصْرِ قِبْلةَ كلِّ مَن أحَسَّ أنّ يَدَ العنايةِ الإلَهيّةِ سَطّرَتْ في كتابِ رُوحِه آيةً مِن آياتِ الجمالِ الخالد، الذي يُعَلِّمُه مَن يَعْلَمُ لِمَن لا يَعْلَمُ. وكانَتْ بلادُنا في ذلك العَصْرِ تُدرِّسُ أسفارَ البطولة، وتُخرِّجُ الشُّعراءَ الذين كان كلٌّ مِنهم شَمْسًا تَزدانُ بها سَماءُ الحياةِ الثّقافيّةِ العربيّة. والحَمْدُ لِلّه في البَدْءِ وفي الخِتام.

مصادرُ المادّة المُقتبسة:

١- يُنظَرُ ذلك مُفصَّلًا في: محمّد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط٥، دار العودة ودار الثّقافة، بيروت ١٩٦٢م.
٢- مُعجَمُ البُلْدان، مادّة «شام».
٣- يُنظَرُ في هذا: الحَرَكةُ الأدبيّةُ في بلاد الشّام، مجموعةُ مُحرِّرين، الجزء الأوّل، دمشق ٢٠٠٨م، ضمن فعاليّات «دمشق عاصمةِ الثّقافة العربيّة»، ص٧٢-٧٣.
٤- استشهد به ياقوت الحمويّ في معجم البلدان، مادّة «شام».
٥- المصدر السّابق.
٦- اقتبسَهُ عيسى العاكوب، في: «تأثيرُ الحِكَم الفارسيّة في الأدب العربيّ في العَصْر العَبّاسيّ الأوّل»، دار طلاس في دمشق، ص٢٣.
٧- اقتبسَهُ أحمد أمين، في: «فجر الإسلام»، ص٥٦.
٨- يُنظَرُ: السّابق، ص٩.
٩- معجم البلدان، مادّة «سورية».
١٠- تأثيرُ الحِكَم الفارسيّة، ص٣٦٢.
١١- سامي الكَيّالي: سَيفُ الدّولة وعَصْرُ الحَمْدانيّينَ، دار المعارف في القاهرة، بغير تاريخ، ص٢٧.
١٢- السّابق، ص٢٨.
١٣- الثّعالبيّ، يتيمةُ الدَّهْر في مَحاسِنِ أهل العَصْر، بتحقيق المرحوم محمّد مُحيي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م، جـ١، ص١١.
١٤- السّابق ١/١٢.
١٥- نفسُه ١/١٢-١٣.
١٦- نفسُه ١/١٤.
١٧- نفسُه ١/١٥.
١٨- نفسُه ١/١٣.
١٩- نفسُه ١/١٥-١٦.
٢٠- نفسُه ١/١٣-١٤.
٢١- نفسُه ١/٣-٤.
٢٢- استشهدَ به سامي الكيّالي في: «سيفُ الدّولة وعَصْرُ الحَمْدانيّين»، ص١٧٩.
٢٣- اليتيمة ١/١٦-١٧.
٢٤- السّابق ١/١٤.
٢٥- نفسُه ١/٣١.